تشارلز سندرس بيرس وجاكوب فون أوكسكيول في السيميائيات الحديثة

د. علوي أحمد الملجمي(*)

الكلمـــات المفتاحية:السـيمائية, دوسـير, بيرس, الكون الذاتي

ملخص

كثير من الدارسـين لا يعرفون السيميائيات إلا عـن طريق سوسـير وبيـرس، أو لا يرون بدايتها إلا مع سوسـير وبيـرس، لكني في هذه الدراسـة أقدم طرحًا مختلفًا، يخرج فيه سوسير من هذه الثنائية التي سيطرت طويلًا على تاريخ السـيميائيات الحديثـة، مـع مجانبتهـا للحقيقة، وأقدم السـيميائيات الحديثة من خلال مؤسسين حقيقيين، هما: الأول: تشـارلز سندرس بيرس، الذي يُعد المؤسس الحقيقي والأول للسيميائيات، إلا أنـه ظل فـي الهامـش إلى جانب سوسـير الـذي يحتل المركـز الأول والرئيس، والآخر: جاكوب فان أوكسكيول، وهذا هُمشَ كثيرًا، فهو المؤسس الذي لا يذكر (وبخاصةٍ في الدراسات العربيـة)، ومع ذلك فهو أحـد الركيزتين اللتين قامت عليهما السيميائيات الحديثة.

قدمـتْ الدراسـة تعريفًا موجـزًا بـ(بيرس) ومفهومـه الأساسـي« السـيميوزيس »، وبـ(أوكسـيكيول) ومفهومـه« الأمفيلـت Umwelt" أو ما يمكن ترجمته بالكون الذاتي. وبحثتْ في نقاط الالتقاء بين هذين العالمين، من حيـث المنطلقات والاشـتغالات. وبينت أثرهما في تشكل السـيميائيات الحديثة، ومكانتهما لدى أعـلام السـيميائيات الحديثة، ومـا كان للجمع بينهمـا من أثـر في تغيـر مفهوم السـيميائيات واهتماماتها ووضعها.

مقدمة

السـيميائيات الحديثة هي العلـم الذي ظهر في نهاية سـبعينيات القرن العشـرين مع التقاء عدد من السـيميائيين في العالم وتَشَكُّل الجمعية الدولية للدراسات السـيميائية International Association for Semiotic Studies سنة ١٩٦٩. ومنذ ذلك الحين قفزت السيميائيات قفـزات معرفيـة كبيرة، ابتعدت بهـا كثيرًا عن

(*) جامعة البيضاء /اليمن

السيميائيات الكلاسيكية التي سيطرت على أوروبا في الثلثين الأول والثاني من القرن الماضي.

تناقش هذه الدراسة العامل الأبرز في تَشكُّل السيميائيات الحديثة، والمتمثل في التقاء أفكار عالمين كبيرين: الفيلسوف الأمريكي تشارلز سندرس بيرس[1] Charles Sanders Peirce (١٨٣٩-١٩١٤)، وعالم الأحياء الألماني جاكوب فون أوكسكيول Jacob von Uexkull (١٨٦٤ - ١٩٤٤). فلقد كان لمزج أفكارهما (من قبل رواد السيميائيات الحديثة) أثر كبير في تشكل أغلب ملامحها.

تأتي هذه الورقة ضمن مشروع الخطاب التأسيسي للسيميائيات الحديثة؛ إذ يفتقر الدرس العربي إلى تأطير أبستمولوجي كافٍ عنها. ولذلك فإن الإشكالية التي تقوم عليها هذه الدراسة هي إشكالية أبستمولوجية تتمثل في أن التأطير العربي يغفل (وحتى غير العربي كثيرًا ما يغفل) الدور الذي لعبه الجمع بين بيرس وأوكسكيول في نشأة السيميائيات الحديثة وتطورها.

تهدف هذه الدراسة إلى عرض (ما تراه) أهم تحول في تاريخ السيميائيات، والأثر الذي تركه هذا التحول، والمفاهيم الأساسية الأكثر تأثيرًا في ذلك، والعلماء الذين أسهموا في اكتشاف بيرس وأوكسكيول، وربطوا بين أفكارهما، وبنوا عليها وطوروها، وكيف تطورت السيميائيات الحديثة انطلاقًا من ذلك.

تنطلق الدراسة من الإشكالية السابقة- متخذةً من نتاج رواد السيميائيات الحديثة (فيما يخص الموضوع) مادة لها- لتحقيق أهدافها من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: بيرس وأوكسكيول: تعريف موجز ومفاهيم أساسية:

ويعرض لمحة عن حياة بيرس ومفهوم السيميوزيس، ولمحة عن أوكسكيول ومفهوم الكون الذاتي/أُمفيلت.

المبحث الثاني: بيرس وأوكسكيول: نقاط الالتقاء:

ويعرض لتأثير كانط على كل من بيرس وأوكسكيول، ولالتقائهما في البحث في الاتصال والمعنى والسيميائية.

المبحث الثالث: أثر بيرس وأوكسكيول في تشكل السيميائيات الحديثة:

ويعرض هذا المبحث اكتشاف بيرس وأوكسكيول من قبل مؤسسي السيميائيات الحديثة، ويركز على (لوتمان – سيبوك - ديلي) نموذجًا لاهتمام أغلب سيميائيي هذه المرحلة بجهودهما. ويبين كذلك أثر الجمع بين أفكارهما في تطور السيميائيات، من حيث: تغير مفهومها، واهتماماتها، ووضعها.

المبحث الأول: بيرس وأوكسكيول: تعريف موجز ومفاهيم أساسية:

بيرس ومفهوم السيميوزيس:

بيرس: نبذة مختصرة عن حياته وإنجازاته العلمية:

تشارلز ساندرس بيرس Charles Sanders Peirce (١٨٣٩ - ١٩١٤)، ولدَ في كامبردج، ودرس في جامعة هارفارد، وتَخَرُّج في ١٨٥٩م بشهادة البكالوريس في الفلسفةِ، وفي ١٨٦٣م حصل على بكالوريوس في الكيمياءِ. عمل في الساحلِ الأمريكيِ

والمسحِ الخاص بقياسات الأرضِ حتى ١٨٩١، كما عمل محاضرًا بشكل متقطّع في هارفارد، ولِمدةٍ قَصِيرَةٍ في أوائل ١٨٨٠ في جامعةِ جونز هوبكنز.[٢]

أدى أسلوب حياة بيرس غير المقبول إلى إنهاء وظيفته محاضرًا في الجامعة، وتلا ذلك فصله من وظيفته الأساسية في هيئة مساحة الأرض والسواحل عام ١٨٩١. وهو ما أدى إلى تحول كبير في حياته الاجتماعية والعلمية[٣]

وتُوصف شخصيته بأنها غير أكاديمية، فقد أصبحت الفلسفة مهنته، وأدى هذا إلى تأسيسه لنظرية البراغماتية، كما أدى اهتمامه بالدين والفلسفة والمنطق إلى اكتشاف منهجيات لتفسير المعنى ومعاييره، ولقيت نظرياته رواجًا كبيرًا في العالم.[٤]

مات بيرس ولم يكن أحد يعرف عن بحوثه السيميائية شيئًا في أوروبا وأمريكا إلا بعض المحظوظين من أمثال وليم جميس W. James في أمريكا وليدي ويلبي L. welby في إنجلترا بسبب مراسلاته معها، مع أنه زار أوروبا خلال حياته، إلا أنه زارها بوصفه عالم أرض، وشارك في الندوة العالمية الأولى لعلماء الأرض التي انعقدت بباريس عام ١٨٧٨. والسبب في عدم شهرة نظريته السيميائية أنه مع كثرة كتاباته كان مقلًا وزاهدًا في النشر، وسبب آخر هو أن ما كان يكتبه في العلامات كان موجهًا إلى علماء الرياضيات أكثر مما كان موجهًا إلى الفلاسفة. لذلك فإن شهرة نظريته السيميائية تعود إلى صدور الجزئين الأولين من أعماله الكاملة عامي ١٩٣١ و١٩٣٢.[٥]

ويُعدُّ منظرَ السيميائيات الحديثة الأول، وأحد المنظرين المؤسسين للبرغماتية. ويمكن تقسيم كتابات بيرس في العلامات إلى ثلاث مراحل[٦]

المرحلة الكانطية (١٨٥١-١٨٧٠): وارتبطت نظرية العلامات عنده في هذه المرحلة بمراجعة المقولات الكانطية في السياق الأرسطي الثنائي.

المرحلة المنطقية (١٨٧٠-١٨٨٧): وخلالها اقترح بيرس منطقًا جديدًا بديلًا للمنطق الأرسطي، وهو منطق العلامات.

المرحلة السيميائية (١٨٨٧-١٩١٤): وطور فيها بيرس نظريته الجديدة للعلامات في ضوء علاقتها مع نظريته للمقولات.

السيميوزيس:

السيميوزيس Semiosis مصطلح وضعه بيرس، وبنى عليه نظريته السيميائية، وهو يعني السيرورة الدلالية أو اشتغال المعنى داخل العلامة وديناميكية التأويل. إنه يعني حركة التأويل داخل العلامة الذي يبدأ من المؤول المباشر ويحركها المؤول الديناميكي ويكثفها في الوقت نفسه، ويفتحها عبر التوالد اللانهائي على المستوى النظري، إلا أنه على المستوى الممارساتي تُحدد خانةً تأويلية من الخانات التي توفرها حركة السيميوزيس.

وكلمة سيميوزيس semiosis «مشتقة من الإغريقية σημειωσις وتعني فعل التدليل»[٧] وقد وضع بيرس هذا المصطلح «للإشارة إلى «صنع المعنى»، وبخاصة إلى التفاعل بين الممثل والموضوع والمؤول»[٨]. وفقًا لبيرس، تستلزم السيميوزيس علاقة ثلاثية

غيـر قابلة للاختزال بيـن العلامة وموضوعها ومؤولهـا؛ لذلك عرّف بيـرس المعنى على أنه نتيجـة للعلاقة الثلاثية بيـن الممثل والموضوع والمؤول[٩]. لذلك، فإنه الأساس الذي تقوم عليه العلامة، فالعلامة تشتغل من خلاله، وأي مقاربة للعلامـة لا تكـون إلا عن طريقـه، وبمطاردته وتتبـع ديناميكيته. ومن هنا فإن التعريف الدقيق للسيميائيات هو أنها «دراسة السيميوزيس»؛ لأن هذا أكثر دقة وعلمية من تعريفها بأنها «دراسة العلامة»، ولهذا عرَّف بيرس السيميائيات بأنها «عقيـدة الطبيعة الجوهرية والأساسـية لجميع أنواع السـيميوزيس الممكنة»،[١٠] فهي تشـمل كل أشكال السيميوزيس، وتنوعاتها المحتملة.

والسـيميوزيس أكثـر المفاهيـم أصالة في سيميائيات بيرس، وهو من الخصائص المميزة لنظريته، و«سـيميوزيس يعنـي العملية»،[١١] أي العمليـة التـي يُنتـج (يصنع) بهـا المعنى، وتتشـكل مـن خلالهـا العلامـة، وهـذا الأمر هـو مـا أعطـى للعلامة عنـد بيـرس طبيعتها العمليـة؛ إذ يرى بيرس «أن السـيميوزيس هو في الأسـاس عملية يحـدث فيها ربـط الثلاثية (الممثل والموضوع والمؤول) بشـكل منهجي ببعضهـا البعـض لتشـكيل شـبكة».[١٢] فهـذا المفهوم (السيميوزيس) هو الذي جعل مشروع بيرس مترابطًا، فالسيميوزيس يرتبط بمفاهيمه الأخـرى العلامـة وأبعادهـا الثلاثـة (الممثل، والموضـوع، والمـؤول)، وأنواعها (الأيقونة، والقرينـة، والرمز)... الخ، وترتبـط بتفريعاته الأخرى فيما يخص المقولات الفانيروسكوبية.

والسـيميوزيس هو «سـيرورة في الوجود والاشتغال وإنتاج الدلالة».[١٣] فالعَالَم الذي تعبر عنه النصوص هو «عالم ينمو ويكبر ويضمحل داخل نسـيج الأكوان الدلالية التي تؤسسها هذه النصوص، أي ما يطلق عليه السميوز».[١٤] ولا يمكـن للعلامة من دون السـيميوزيس أن تحيل على موضوع أو مفهوم، فهو عند (بيرس) ومن تبعه من السيميائيين أساس العملية التأويلية. فهو السـيرورة التي يشتغل ضمنها العالَم على شكل علامـات. ويعرفه (أمبرتو إيكـو) بأنه «حركة أو سـيرورة تفتـرض تشـارك ثلاثـة عناصر هـي العلامـة الممثـل، والعلامـة الموضوع، والعلامة المؤول. وهـذه الحركة المتداخلة بين هـذه العناصر الثلاثـة لا يمكن بأي شـكل من الأشـكال أن تختصر في علاقات زوجية».[١٥] ويعرفه سـعيد بنكراد بأنه «سـيرورة متحركة لإنتاج الدلالة وتداولها واسـتهلاكها».[١٦] ومن ثَمَّ فهو السيرورة الدلالية التي يقوم بها (الممثل، والموضوع، والمؤول) داخل العلامة.

أوكسكيول ومفهوم الكون الذاتي/أمفيلت:

نبذة عن حياته:

جاكـوب فـون أوكسـكيول Jacob von Uexkull (١٨٦٤ - ١٩٤٤)، ولـد فـي قرية صغيرة في إستونيا، وساعدته هذه البيئة الريفية في ملاحظـة الطبيعة من صغره، فكان يمضي سـاعات عديدة في ملاحظة الخنافس واليرقات والضفادع، والتحق بالمدرسـة الأسـقفية. وفي ١٨٧٥ انتقلت عائلتـه إلى كوبورغ في ألمانيا، وفـي عام ١٨٨٤ التحق بكليـة العلوم الطبيعية في جامعـة دوربـات، (جامعة تارتـو حاليا)، وتخصص في علم الحيوان[١٧].

وتعـرف خلال سـنواته الأربع في الجامعة على أمرين، كانا لهما تأثير كبير في حياته:

نقد كانط: قرأ أوكسـكيول في هذه المرحلة

نقد كانط، و«قادت دراسة كانط أوكسكيول إلى تحديد اهتماماته الرئيسية بوصفه عالم أحياء في وقت مبكر للغاية (...) لقد أدرك أن التحليل التجاوزي الذي وجهه كانط إلى عقول البشر يمكن أن يمتد ليشمل أنواعًا حيوانية أخرى أيضًا (...) وهكذا ظهرت الفلسفة التجاوزية بوصفها نظام علمي جديد، تجريبي ونظري، أطلق عليه أوكسكيول Umweltlehre (نظرية البيئة)»[١٨].

نظرية داروين: أو ما يعرف بـ«النظرية الداروينية للتطور عن طريق الانتقاء الطبيعي»، وبتأثير من فون باير von Baer سرعان ما أعلن أوكسكيول رفضه النهائي والجذري لهذه النظرية.[١٩]

عمل أوكسكيول خلال السنوات ١٨٨٨ و١٩٠١-١٩٠٢ في هايدلبرغ مساعدًا لعالم وظائف الأعضاء فيلهلم كوهن Wilhelm Kühne في معهد الفسيولوجيا بالجامعة المحلية، وفي هذه المدة حاول التوفيق بين الفرضيات الميكانيكية والأطروحة النظرية الحيوية، مأخوذًا تمامًا بإمكانيات التفكير الآلي، لدرجة أنه نظر إلى الروابط العصبية للحيوانات على أنها آلات أوتوماتيكية متصلة بنظام شامل من ردود الفعل.

واجه أوكسكيول كثيرًا من المشاكل بعد وفاة كوهن، فقد مُنع من الوصول إلى المختبر، ورُفِض طلبه لتمويل أبحاثه؛ وكانت هذه الصعوبات سببًا للتغير الذي طرأ على منهجه في البحث، ودفعته أكثر نحو التفكير النظري، وكانت النتيجة الأولى لهذا التغيير هي مقالته المؤرخة ١٩٠٢ "في النضال من أجل نفسية الحيوان"، حيث كانت محاولته الأولى لتطبيق فلسفة كانط في علم الأحياء[٢٠].

تزوج في ١٩٠٢ من الألمانية Gudrun von SchwerinK، والتي تشترك معه في الاهتمامات نفسها، وكانت من عائلة أرستقراطية، عاشا على ثروتها بعد أن فقد وظيفته وممتلكاته كلها، وبعد الحرب العالمية الأولى عاشا وضعًا ماديًا صعبًا تنقلا بسببه بين المدن.

منحته عدد من الجامعات الدكتوراه الفخرية، كان أولها في عام ١٩٠٧، منحته جامعة هايدلبرغ درجة الدكتوراه الفخرية في الطب في مرحلة كان مرفوضًا فيها بسبب اشتغالاته البحثية، حتى أنه لم يجد وظيفة. ونظرًا لعدم وجود فرصة لأداء تجاربه، كرس نفسه خلال سنوات الحرب لتوسيع مفاهيمه النظرية في اتجاهات جديدة، وإطلاق سلسلة من الدراسات التي دفعته إلى نشر عدد كبير من الكتابات في السياسة والأخلاق والروحانية. ولكنه لم يفقد اتصاله بتخصصه الرئيس؛ فقد كتب في ١٩٢٠ أهم كتبه في هذا المجال "علم الأحياء النظري"، وعلى الرغم من أنه لم ينتشر على نطاق واسع على الفور، إلا أن هذا الكتاب يمثل نقطة تحول في إنتاج أوكسكيول. نُشرت طبعة منه باللغة الإنجليزية بعد بضع سنوات، والتي كان لها الفضل في إدخال المصطلح Umwelt في معجم الأحياء الدولي. وكان لهذا العمل أصداء إيجابية كان لها مردود كبير على حياة أوكسكيول:

ذكر دريش Driesch أنه مع "علم الأحياء النظري" ترك علم وظائف الأعضاء وراءه، ووصل إلى علم الأحياء الحقيقي.

راجع كوهنهايم Cohnheim العمل بشكل إيجابي، ونجح كذلك في تزويد أوكسكيول بدعوة

إلــى المؤتمر الدولــي لعلم وظائــف الأعضاء (الذي عقد في إدنبرة عام ١٩٢٣).[٢١]

عنــد عودته مــن المؤتمر عُيّــن في جامعة هامبــورغ بتوصيــة من كوهنهايــم، وانتقل مع عائلته في بداية ١٩٢٥ إلى مكان عمله الجديد، لــم يجد مختبرًا في حوض الأســماك في حديقة الحيوان -الذي كان مكان عمله- فاستخدم كشك الســجائر والفول الســوداني مختبرًا، ونجح في نقــل أفكاره إلــى طلابه، وبإصــرار منه تحول هذا المختبر إلى معهد بحث حقيقي، أطلق عليه في عام ١٩٢٧ اســم «معهــد البحوث البيئية». وأصبح المعهد معروفًا على المســتوى الدولي، ونشــر أكثر من ٧٠ عملًا علميًا تحت إشرافه، وعقــد كذلك عددًا من النــدوات. تدهور المعهد بعــد عــزل أوكســكيول مــن إدارته، وبســبب العــداء لأفــكار أوكســكيول، ووصــل الحــال إلــى إلغاء المعهــد، وحذف تدريــس «البحوث البيئــة Umweltforschung" مــن برنامــج درجة علم الحيــوان، ورفض قبول أطروحات الدكتوراه التي تندرج تحت هذا المنهج.[٢٢]

أدى موقف أوكســكيول المعــارض للنازية إلــى مزيــد من العزلــة العلمية، فقــد فُصل من منصبه، وأحيل إلى التقاعد في ١٩٣٦. في عام ١٩٤٠ تفاقمت مشــاكل القلــب التي كان يعاني منها؛ لذلك قرر هو وزوجته الانتقال إلى إيطاليا للاســتمتاع بمنــاخ أكثر صحة. كانــت الوجهة المختــارة هــي جزيــرة كابــري، حيــث توفي أوكسكيول في ٢٤ يوليو ١٩٤٤[٢٣].

يمكن تقســيم الإنتــاج العلمي لأوكســكيول إلى ثلاث فتــرات وفقًا للاهتمامات والمواضيع الســائدة. تغطــي الفترة الأولى ســنوات تعليمه وتدريبــه وتمتد تقريبًــا من عام ١٨٩٢ إلى عام ١٩٠٩، عندمــا قدم عالم الأحيــاء طريقة بحثه ونتائــج البحث التجريبي الذي أجراه. في الفترة الثانيــة، من عام ١٩١٠ إلى عام ١٩١٨، يجمع أوكســكيول بيــن البحــث التجريبــي والتفكيــر النظــري. الفتــرة الثالثــة (مــن نهايــة الحرب العالميــة الأولى حتى وفاته) تتكون أساسًــا من الأعمال النظرية.[٢٤]

وتعــدُّ دراســاته ركيزة أساســية في ظهور البَيُوسيميائيات Biosemiotics، وعلم التحكم الآلي (الســبرانية). وتوقع العديد من أفكار علم الكمبيوتــر، وبخاصــة فيما يتعلــق بالروبوتات قبــل ظهورها بمــا يقارب مــن ٢٥ عامًا. وتعد أول الدراســات التي استغلت الســيميائيات في علم الأحياء دراســات أوكســكيول فــي كتابيه: علم الأحياء النظــري ١٩٢٠ (Theoretical Biology)، ونظرية المعنى ١٩٤٠ (theory of meaning). ونهج أوكســكيول النهج نفسه الــذي نهجه (بيرس) في تفســير ســلوك الكائن الحي.[٢٥]

ومــع الصعوبات التــي واجهها فــي حياته العلميــة، فإن عمل أوكســكيول لــم يتوقف عن التأثير في علم الأحيــاء والأنثروبولوجيا وعلم الســلوك والفلســفة والســيميائيات فــي العقــود التالية، فبدءًا من السبعينيات بدأ عدد من العلماء في مجــالات عدة استكشــاف أبحاثــه وإحيائها وتطويرهــا، كما ســنرى فــي المبحــث الثالث بالنسبة للسيميائيات.

الكون الذاتي/ أمفيلت:

من أهم المفاهيم التي اشــتهر بها أوكسكيول وارتبطت به مفهوم الكــون الذاتي Umwelt، الــذي يعرفه بأنــه العالم الإدراكــي الذي يوجد فيــه كائــن حــي ويعمــل بوصفــه موضوعــا.

واللفظ مأخوذ من الألمانية، وتعني «البيئة المحيطة»[٢٦]، ويُترجم هذا المصطلح غالبًا بأنه «العالم المتمركز حول الذات»، ويعني العالم السيميائي للكائن الحي، ويشمل كل مظاهر المعنى في العالم الخاص بالكائن الحي. وهو سمة مهمة ورئيسية للكائنات الحية والأنظمة السيميائية. وكل عنصر في الكون الذاتي له معنى، وبذلك فهو قادر على التفاعل والتواصل. يقوم الكائن الحي بإنشاء كونه الذاتي الخاص وإعادة تشكيله عندما يتفاعل مع العالم، فيما يسمى بـ»دائرة وظيفية»[٢٧].

وهو مصطلح يوحد كل العمليات السيميائية للكائن الحي في الكل. يتبع مفهوم الكون الذاتي ترابط العمليات السيميائية الفردية داخل الكائن الحي؛ مما يعني أن أي سميوزيس فردي داخل الكائن الحي يعمل بوصفه موضوعًا يكون مرتبطًا باستمرار بأي سميوزيس آخر في الكائن الحي نفسه.[٢٨]

عند أوكسكيول ال»أمفيلت» يعني «مجال التجربة الحسية والمعرفية التي يمتلكها الكائن الحي في العالم الذي يحيط به».[٢٩] ووفقًا له، فإن كل نوع حيواني يشكل حول نفسه عالمًا شخصيًا مختلفًا،[٣٠] يرتبط بعلاقة مع عوالم (أكوان ذاتية Umwelten) لكائنات حية أخرى؛ لذلك يُعرف ال"أمفيلت" كذلك بأنه «تشابك العلاقات الحيوية مع الكائنات الحية الأخرى».[٣١] وهو ما يعني أن أمفيلت هو نتاج نشاط متعالي من جانب موضوع الحيوان، وينطبق هذا الأمر على ما إذا كان عدد من الأشخاص يشتركون في الأمفيلت نفسه[٣٢] وبناءً على تصور أوكسكيول عن العالم المضاد الذي يتشكل لدى الكائن الحي من خلال الانعكاس؛ فإن هذه العلاقة هي علاقة سيميائية، أي أنه «بين الموضوع (الإنسان أو الحيوان) والواقع الخارجي توجد علاقة سيميائية، للتفسير أو حتى الترجمة، والتي تكون نتيجتها تكوين البيئة الخاصة بالأنواع نفسها. تم التأكيد على هذه العلاقة - التي ستُحدد بشكل صريح في إحدى كتابات أوكسكيول الأخيرة، وهي «نظرية المعنى» والتي من شأنها أن تجذب انتباه السيميائيات الحديثة- بالفعل في الطبعة الأولى من كتاب «Umwelt und Innenwelt der Tiere"».[٣٣]

تختلف الأكوان الذاتية للكائنات الحية المختلفة؛ وهذا عائد إلى تفرد تاريخ كل كائن حي وتميزه عن غيره.[٣٤] ومن هنا فقد حاول أوكسكيول تنظيم البيئات الخاصة بالأنواع الحيوانية من خلال تحديد الاختلافات بين البيئات بدءًا من أبسط الأنواع وانتهاءً بأكثرها تعقيدًا، ولكن يمكن القيام بالعكس.[٣٥] أي البدء بالإنسان وطرح خصائصه التي لا يشترك معه فيها أي نوع آخر، والانتقال إلى أبسط الأنواع. وبناء على هذا التمايزات في الأمفيلت يشكل المراقب الخارجي مخططات للأنواع الحيوانية.

هذه نظرة بسيطة عن هذا المفهوم المهم خاصة في السيميائيات الحديثة خاصة في حقل البيوسيميائيات، لكنه ليس حكرًا عليها فقد «أصبح مستخدمًا على نطاق واسع وطُورَ في السيميائيات والأنثروبولوجيا والفلسفة ومجالات أخرى، خاصة منذ أواخر السبعينيات».[٣٦] وغدا له منذ ذلك الحين تأثيره على عدد من اتجاهات السيميائيات المختلفة، وعلى عدد من الحقول الأخرى ذات الصلة، وأثبت أنه مهم ومثمر للغاية في السياق الأوسع للبيولوجيا والفلسفة والعلوم الإنسانية.

المبحث الثاني: بيرس وأوكسكيول

نقاط الالتقاء:

تأثير كانط:

انطلق كل من بيرس وأوكسكيول من كانط؛ فقد كان هو المعلم الأول لهما، وكان منطقه هو الملهم لهما في بداياتهما. كلاهما تبنى فلسفته، وناقشها، ووسعها، ولا يمكن فهم أعمالهما بعيدًا عن التأثير الكانطي، فلفهمها فهمًا صحيحًا يجب الاعتراف بهذا التأثير الكبير. قراءة كانط وفلسفته المثالية دليلنا- بشكل كبير- إلى فهم كثير من القضايا التي ناقشاها. فقد «استوعب كل من بيرس وجاكوب فون أوكسكيول تمامًا المبادئ الكانطية»،[٣٧] واستغلالها، ووسعاها، وكان لهذا أثر واضح في أعمالهما.

بدأ بيرس حياته كانطيًا، وكانت مرحلته الأولى في البحث هي دراسة مقولات كانط ومناقشتها،[٣٨] وإن لم يفارقه كانط حتى بعد أن تجاوز هذه المرحلة، فكان بيرس يرى أن مقولاته وآراءه لم تخرج عن النهج الكانطي، وأنها تتشابه إلى حد كبير مع وجهات نظر كانط، ففي رسالة إلى فيكتوريا ليدي ويلبي بتاريخ ٢٠ مايو ١٩١١ يقول بيرس: «لقد ظهر إلى أي مدى كان كانط على حق»[٣٩]. وحتى عندما أسس نظريته البراغماتية ظل وفيًا لتكوينه الكانطي، يقول: «الكاتب الحالي (يقصد نفسه) كانطيًا خالصًا حتى أُجبر بخطوات متتالية على البراغماتية»[٤٠]. فهو لم يترك كانط وراءه، بل- على الرغم من نقاشاته معه ومؤاخذاته عليه- أخذه معه إلى براغماتيته، يقول: «كانط (الذي أنا أكثر من معجب به)، ليس سوى براغماتي مرتبك إلى حد ما».[٤١]

وحتى تأسيسه لنظرية السيميوزيس، أو ما يسميها العقيدة الضرورية للعلامات يمكن ملاحظة تأثير كانط، سواء في التأثير المباشر (تبنيه لآراء كانط)، أو في العناصر المشتركة (أو التي يوجد فيها تشابه كبير بينهما)، أو في تلك المسائل التي انطلق فيها من معارضته لكانط.

مثل صاحبه نشأ أوكسكيول منذ خطواته العلمية الأولى، ففي الجامعة تَعَرَّف كانطَ وفلسفَتَه، وقرأ له «نقد العقل الخالص»، وتأثر به كثيرًا، وطبق فلسفته في أبحاثه في علم الأحياء، «لقد أدرك أن التحليل التجاوزي الذي وجهه كانط إلى عقول البشر يمكن أن يمتد ليشمل أنواعًا حيوانية أخرى أيضًا. بهذه الطريقة، تركت دراسة البنى التجاوزيَّة للعقل مجالَ المنطقِ الخالص ليَدخلَ مجالَ العلوم الطبيعية (أي ما نسميه اليوم بالعلوم المعرفية). فعند أوكسكيول، يصبح استكشاف العقل الخالص هو السعي وراء طرقٍ للوصول إلى العوالم المعرفية للحيوانات غير البشرية. وهكذا ظهرت الفلسفة التجاوزية كنظام علمي جديد، تجريبي ونظري، أطلق عليه أوكسكيول Umweltlehre (نظرية البيئة)»[٤٢].

وبتأثير كبير من كانط يفرق أوكسكيول بين الآلات والكائنات الحية، وينص على «أن الأولى هي كيانات منظمة وفقًا لنهاية خارجية، في حين أن الأخيرة هي كيانات هادفة داخليًا، كيانات «بلا نهاية» بمعنى كونها غاية في حد ذاتها»[٤٣]. وغير هذا كثير من الافتراضات النظرية لعلم الأحياء التي قدمها أوكسكيول في إطار كانط. ولم يكتف أوكسكيول باستغلال تراث كانط في أعماله النظرية، بل إنه يذهب

إلى أبعد من ذلك، فهو يرى أنه قد حان الوقت لنقلها من النظرية إلى التجربة، يقول: «كانت الأعمال الأساسية الثلاثة لكانط متاحة منذ أكثر من مائة عام؛ إنها ليست نظامًا فلسفيًا بقدر ما هي ملاحظة علمية للقوانين التي تحكم حياة الروح البشرية. لقد حان الوقت للاستمرار هنا أيضًا من خلال التجربة»[٤٤].

كانت فلسفة كانط حاضرة في صياغة أوكسكيول لمفهوم أمفيلت umwelt، ويؤكد سيبيوك أن الجانب السيميائي في أعمال أوكسكيول بشكل عام، وفي مفهوم الأمفيلت على وجه الخصوص، ذو جذور كانطية.[٤٥] وهو ما يعني أن «الفهم الكامل لفكر أوكسكيول مرتبط بالاعتراف بجذوره الكانطية».[٤٦]

وخلاصة القول: إن كلًا من بيرس وأوكسكيول مدينان لكانط بالكثير، فقد كانت آراؤه هي الأساس الذي بنيا عليه، وانطلقا منه، صحيح أنهما لم يكونا مريدَين (بالمعنى الصوفي لكلمة مُريد) بين يديه، ولكنهما أعادا قراءته، وناقشا مقولاته، وقام كل منهما بتوسعتها، وتطبيقها في مجالات مختلفة، وحتى فهمه أو تفسيره القاصر أو الخاطئ من وجهة نظرهما كان مفيدًا لهما، فهو الذي فتح لهما آفاق تلك القضايا، ونبههما إليها.

السيميائية والمعنى والاتصال

بيرس مؤسس السيميائيات الحديثة، وصاحب نظرية السيميوزيس، ومن أشهر من تكلم في العلامات، وبحث في المعنى والاتصال؛ ولذلك فإن الجانب السيميائي عنده لا يحتاج إلى تتبع وإيضاح. فالعلامة عنده كل ما يحيل على شيء آخر؛ لذلك فالوجود عنده لا يشتغل إلا من خلال العلامات، كل العمليات البشرية والطبيعية هي علامات تشتغل من خلال السيميوزيس. هذا السيميوزيس الذي يراه بيرس القوة التي تقف وراء كل اتصال، ووراء حركة الكون. ومن خلال نظريته السيميوزيسية هذه «سعى بيرس إلى بناء نظرية لجميع العلامات الطبيعية والتقليدية الممكنة»[٤٧]. لذلك فهو ينظر إلى العمليات الكونية والبشرية بوصفها علامات، أي أنه يعدها عمليات سيميائية، فكل ما يشير، كل ما يدل، أو يحيل على شيء آخر، وكل ما يؤول ويفسر؛ يشكل علامة سيميائية.

من هنا جاء ربط السيميائيين بين سيميائية بيرس وأعمال أوكسكيول، فقد لاحظوا في أعماله المتأخرة- وبخاصة «غزوة في عوالم الحيوان والبشر»، و»نظرية المعنى»، وبشكل أكثر وضوحًا وعمقًا في «علم الأحياء النظري»- الجانب السيميائي والتأويلي؛ «لذلك ليس من قبيل المصادفة أن أولئك الذين (مثل سيبيوك) يتعرفون على الجودة الفائقة والتأسيسية لعملية تكوين الأمفيلت Umwelt يمكنهم أيضًا فهم الجانب السيميائي والتأويلي لنظرية أوكسكيول البيئية»[٤٨]. فـ أوكسكيول يرى أن عمليات الكائن الحي هي عمليات اتصال، وهي ذات مغزى وهدف، سواء تلك العمليات الداخلية، أو تلك التي تربط الكائن الحي بالخارج، فهو «يبذل جهدًا نظريًا كبيرًا لإظهار كيف أن نشاط موضوع الحيوان له طبيعة تأويلية: يتم ترجمة الإثارة غير المتمايزة إلى علامات، وهذه العلامات لها معنى (فهي تقف أمام شخص ما لشيء ما، باستعمال تعريف بيرس المذكور أعلاه) ويجب معالجتها وفقا لذلك. وهي مقسمة أيضا إلى فئتين رئيسيتين: تلك الخاصة بالعلامات الإدراكية القادمة من الخارج، أو

بالأحرى، التي يعاد النظر إليها على أنها قادمة من الخارج، والعلامات التشغيلية للأصل داخل العضوي. في الحالة الأولى يكون التفسير من النوع المعرفي، وفي الأخرى يحدث ذلك من خلال العمل ولا يعاد إدراكه عادة.»[٤٩]

لقد «نهج أوكسكيول النهج نفسه الذي نهجه (بيرس) في تفسير سلوك الكائن الحي»[٥٠]. وهو ما يعني أن أوكسكيول ينظر إلى العمليات الداخلية والخارجية للكائن الحي بوصفها علامات، وهو بهذا يلتقي مع بيرس في نظريته السيميائية، وهو الأمر الذي دعا عدد من العلماء للجمع بينهما لتطوير السيميائيات الحديثة.

لقد كان أوكسكيول يبحث في الاتصال والمعنى، وهو الهم الأكبر الذي شغل كتابات بيرس، يرى أوكسكيول أن هناك عمليات اتصال تحدث داخل الكائن الحي، وعمليات أخرى تحدث بين الداخل والخارج، فهناك عمليات اتصال (علاقة سيميائية) بين العالم الداخلي للإنسان والحيوان والبيئة أو الواقع الخارجي، وهي كذلك لأنها تعتمد على التأويل أو التفسير (الترجمة)، أي أنها تحمل معنى[٥١].

من هنا يتضح أن أكسكيول كان يشتغل في مجال السيميائيات؛ فقد جادل كثيرًا ليثبت أن عمليات الكائن الحي الداخلية والخارجية ذات معنى (لها غاية)، وأنها عمليات اتصال، تُبنى على أساس علاقة دلالية سيميائية. وقاده هذا إلى الاشتغال على العلامة وتصنيفها، وهو ما يتفق إلى حد كبير مع اشتغال بيرس على العلامة، وإن اقتصر اشتغال أوكسكيول على علامات الكائن الحي، ففي الوقت الذي كان فيه بيرس يصنف العلامات إلى أيقونة وقرينة ورمز، من جهة، ووصفية وفردية وعرفية، من جهة ثانية، وتفصيلية وإخبارية وبرهانية من جهة أخرى. كان أوكسكيول يقسم العلامات إلى علامات إدراكية وعلامات تشغيلية (عملية)، من جهة، وعلامات محلية وعلامات بيئية، من جهة ثانية، وعلامات مكانية وعلامات اتجاهية (زمانية) من جهة ثالثة.

المبحث الثالث: أثر بيرس وأوكسكيول في تشكل السيميائيات الحديثة

اكتشاف بيرس وأوكسكيول من قبل مؤسسي السيميائيات الحديثة:

كان التأثير الأبرز في سيميائيات الثلث الأخير من القرن الماضي هو لبيرس وأوكسكيول، فهما الأكثر حضورًا عند علماء السيميائيات في هذه المرحلة، فقد أعادوا اكتشافهما ودراستهما- كما سنرى- ودمجوا بين مفاهيمها؛ ليؤسسوا اشتغالات واتجاهات جديدة داخل السيميائيات، وسنرى كيف أن هذا الاكتشاف والدمج قد غير من نظرة السيميائين للسيميائيات ومفهومها ووظيفتها ومجالات اشتغالها.

لا يخفى تأثير بيرس في السيميائيين في الثلث الأخير من القرن الماضي على وجه التحديد؛ فهو المؤسس الأول لهذا الجيل كما يرى أمبرتو إيكو.[٥٢] أما أوكسكيول «فقد كان له تثير كبير على علماء السيميائيات الحديثة، وخاصة منهم أولئك الذين اتجهوا إلى الدراسات العبرتخصصية، أمثال: توماس سيبوك، ومارت هيدجر، ومارتين كرامبين Martin Krampen الذي وضع في ثمانينيات القرن العشرين، وبتأثير مباشر من أوكسكيول، تحليلًا أثبت فيه وجود السيميوزيس في المملكة النباتية،

وأطلق عليه اسم Phytosemiotics»[٥٣].

وفيما يأتي أُبَيّن اكتشافَ بيرس وأوكسكيول من قبل ثلاثة من أبرز علماء السيميائيات الحديثة، وتأثيرهما عليهم. أقدمهم نموذجًا فقط، وإلا فإن تأثيرهما طال أغلب ذلك الجيل، إن لم يكن كله.

يوري لوتمان

في سنواته الأولى أعدَّ لوتمان نفسه ليصبح عالم أحياء، لكنه قرر بعد ذلك أن يدرس الأدب، وأصبح عالمًا سيميائيًا،[٥٤] وقد شارك في عدد من الندوات التي عقدها علماء البيولوجيا في جامعة تارتو، شارك في بعضها بوصفه متحدثًا، وكانت بعض هذه الندوات تناقش أوكسكيول.

فكرة الفضاء السيميائي semosphere أكثر أفكار لوتمان أهمية، وهي فكرة قائمة على مفهومي السيميوزيس لبيرس، والأمفيلت لأوكسكيول، حتى وإن لم يدرك لوتمان ذلك، أو لم يصرح به، ولعله إن لم يطلع عليهما مباشرة سمع عنهما من خلال لقائه مع سيبيوك وأعضاء الجمعية الدولية للسيميائيات، ومشاركته في تحرير مجلة Semiotica، التي يرأس تحريرها سيبيوك، أو من خلال مراسلاته مع هذه الأخير.[٥٥]

الفضاء السيميائي يتميز بالديناميكية، أي أنه يقوم على السيميوزيس، والفضاء السيميائي -بحسب لوتمان- فضاء ضروري لوجود الأنظمة/اللغات المختلفة واشتغالها، إنه لا يعني تسوير هذه الأنظمة وجمعها داخل إطار واحد، بل هو سابق عليها، ويوجد في حالة تفاعل دائم معها.[٥٦] ويتكون من عناصر، هي الأكوان الذاتية فـ«الفضاء السيميائي هو مجموعة من الأكوان الذاتية (Umwelts) المترابطة، فكل كونين ذاتيين عندما يتصلان يكونان جزءًا من الفضاء السيميائي نفسه».[٥٧]

وهذا يعني أن أفكار لوتمان قد بدأت من تصور أنظمة سيميائية (عوالم ثقافية) تعيش داخل إطار واحد، تنفصل عن بعضها، وتتصل في الآن نفسه، تعيش في حالة من التفاعل، «بدأت أعمال يوري لوتمان في السيميائيات الثقافية في البداية من النموذج الذي يشبه إلى حد بعيد نموذج أوكسكيول»[٥٨]. أي أنه يشبه مفهوم الأمفيلت لأوكسكيول. وباختصار يمكن القول إن مفهوم الفضاء السيميائي هو الجمع بين السيميوزيس والأمفيلت، سواءً أدرك لوتمان ذلك وهو يشتغل على مفهومه أم لا.

توماس سيبيوك

توماس سيبيوك Thomas A. Sebeok أحد أهم الأسماء اللامعة في السيميائيات الحديثة في القرن الماضي، بل إنه أبرز مؤسسيها وعلمائها، وكان له دور كبير في تطور السيميائيات، ونقلها من صيغتها الكلاسيكية إلى شكلها الحداثي، ومن العلوم الإنسانية إلى علوم الطبيعة والعلوم الدقيقة، فقد كان تأثيره كبيرًا في مجال السيميائيات ونظرية الاتصال «في الواقع، لم يكن لأي شخص آخر في العالم اليوم التأثير الهائل الذي أحدثه البروفيسور سيبيوك في هذين المجالين. لن يكون من المبالغة القول إنه بدون بحثه المبتكر وكتاباته النقدية، لن يكون كلا المجالين مزدهرًا ومهمًا كما هو عليه اليوم، كما نحن في بداية الألفية الجديدة.»(٥٩) وفضلاً عن ذلك فقد كان سيبيوك أستاذًا لجيل كامل من علماء السيميائيات، وألف مجموعة من الكتب، كان لها الفضل في تطور

السيميائيات وبيان كيف يعمل السيميوزيس في شتى مظاهر الحياة.

يـرى Carlo Brentari أن السـيميائيات المعاصرة بـدأت مع اهتمام سـيبيوك الكبير بـ جاكوب فان أوكسكيول، بدءًا من كتاب سيبيوك The Sign & Its Masters (١٩٧٩)[٦٠]. فكثيـر من جهود اكتشـاف أوكسـكيول من قبل علماء أمريكا الشمالية تعود لـ سيبيوك. وانطلاقًا من ذلك سعى سـيبيوك إلى وضع نقطة اتصال والتقاء بين النهج العلمي لدراسة الكائنات الحية (علـم الأحياء)- مسـتغلًا إلى حـد كبير جهود أوكسكيول- والسيميائيات، وخاصة سيميائيات تشارلز سندرس بيرس.

وانطلاقًـا مـن بيـرس وتعريفـه للعلامـة و«الاعتقـاد بـأن وجـود الإشـارات وعمليات التفسـير (ظاهرة semiosis) ليس مجرد سمة نموذجيـة للمجـال الثقافي أو الإنسـاني، ولكنه يميـز كل الطبيعة الحية؛ يقود سـيبيوك إلى أن يجد في جهود أوكسكيول نظرية أصيلة ومتقنة ومتطورة للعلامات في مجـال البيولوجيا»[٦١] لذلـك كانـت فكرتـه الأساسـية هـي: «إن السيميوزيس هي الحياة»[٦٢].

يـرى سـيبيوك أن من أكثـر المفاهيم إثارة وأهمية في تراث أوكسـكيول هو مفهوم الكون الذاتـي umwelt؛ لذلـك أولاه اهتمامًـا كبيرًا. ودخـل هـذا المفهوم عـن طريق سـيبيوك إلى السـيميائيات الحديثـة، واسـتعمل علـى نطاق واسـع في العقود القليلة الماضيـة[٦٣]. لقد كان لهذا المفهوم دورًا واضحًا في نشـاط سـيبيوك العلمـي في مجال السـيميائيات، فهـو يرى أنه ثبـت أن هـذا المفهـوم يتوافق بشـكل كبير مع السيميائيات الحديثة[٦٤].

جون ديلي

جـون ديلـي John Deely (١٩٤٢-٢٠١٧) سـيميائي أمريكـي، زميل سـيبيوك، رأس الجمعية الأمريكية للسـيميائيات، اشـتغل مـع سـيبيوك فـي قـراءة إرث بيـرس وإعادة إحيائه وتطويره، واكتشـاف أوكسـكيول، فهو يرى «أن السيميائيات هي بالتأكيد فلسفة عصر مـا بعد الحداثة. نظرًا لأن السـيميائيات هي في الوقت نفسه فهم وطريقة للرؤية، يمكننا أن نجد آثـارًا لها قبل وقت طويل من صياغة تشـارلز بيـرس أو جاكوب فون يوكسـكتيل -مؤسسـو النظام في فجر القرن العشـرين- نظرياتهم عن العلامـة»[٦٥] فديلـي يـرى أن أوكسـكيول هو مؤسس السيميائيات الحديثة إلى جانب بيرس.

يعلـق ديلـي علـى المكانـة التـي احتلتهـا أوكسكيول في السيميائيات في الثلث الأخير من القـرن المنصرم، ويرى أن ذلـك نتيجة لتأثيره الكبيـر، فتأثيـره في السـيميائيات الحديثة ليس مستغربًا، فـ «نحن مدينون أساسًا لعمل جاكوب فون أوكسـكيول. لذلك ليس من المسـتغرب أن أوكسكيول قد بدأ في الظهور ضمن السيميائيات المعاصـرة، بوصفه ربما المفكر الوحيد الأكثر أهميـة لفهم الظروف البيولوجية لتجربتنا للعالم بالشروط التي تتطلبها السيميائيات»[٦٦]

لقد أعـاد ديلي قـراءة تاريخ السـيميائيات بتكليف من توماس سـيبيوك، ونشـر عددًا من الإصـدارات في هـذا الخصـوص، ورأى أن تاريخ السيميائيات يحفل بعلماء كبار، قدموا فيه شـيئًا كثيرًا، لكنهم مع ذلك لم يلقوا اهتمامًا يليق بهـم، ولعل مرد هذا الأمر إلى أن بعض هؤلاء لـم يكونوا علـى دراية أن عملهـم يدخل ضمن السـيميائيات، كما هو الحال مع أوكسكيول. لقد

استخلص ديلي من قراءته لتاريخ السيميائيات أنه «علينا الآن أن نرى كيف يشتمل تاريخ السيميائيات ونظريتها على شخصيات أساسية أيضًا، دون أن يفهموا صراحة عملهم على أنه سيميائي، فقد قدموا مساهمات مفيدة وحتى حاسمة نحو الاعتراف بما يبدو في ملاءمته الكاملة ضمن الأفق الواسع للسيميائيات»[٦٧]

وينطق ديلي من هذه القناعات والقراءات إلى التأكيد على أن أوكسكيول أحد أعمدة السيميائيات الحديثة وأحد مؤسسيها، وهو رائد البيوسيميائيات Biosemiotics، وهو كذلك أحد أعظم علماء سيميائيات التشفير Cryptosemiotics.[٦٨] لقد اعتمدت دراساته مثل زملائه على الجمع بين مفهومي الأمفيلت Umwelt لأوكسكيول ومفهوم السيميوزيس Semiosis لبيرس.

أثر الجمع بين جهود بيرس وأوكسكيول في تطور السيميائيات:

كما قلتُ سابقًا، إن اكتشاف السيميائيين- وبخاصة السيميائيين الأمريكيين- لأوكسكيول، والجمع بينه وبين بيرس كان له تأثير كبير في السيميائيات المعاصرة، ولهذا السبب تحولت من الاتجاه التقليدي البنيوي السوسيري إلى الاتجاه البيرسي. فقد أُعطيَ الاهتمام الأكبر في هذه المرحلة لبيرس ونظريته في السيميوزيس والعلامة. تزامن ذلك مع اكتشاف أوكسكيول، وادماج مفاهيمه ضمن الدراسات السيميائية. وتزامن كل ذلك مع إنشاء الجمعية الدولية للدراسات السيميائية International Association for Semiotic Studies (IASS/AIS))، وإطلاق مجلة Semiotica، واتصال المدارس السيميائية ببعضها، خاصة المدرسة الأمريكية بقيادة سيبيوك ومدرسة (تارتو-موسكو) بقيادة لوتمان.

تغير مفهوم السيميائيات

لم يعد مفهوم السيميائيات هو دراسة الحياة الاجتماعية للعلامات، ولم تعد العلامة تعني العلامات اللغوية، أو ما يقوم مقامها. ولم تعد السيميائيات فرعاً من علم النفس، ولا ترتبط باللسانيات. فقد تغير مفهومها، فأصبحت تعني -«دراسة صناعة المعنى»[٦٩] من خلال السيميوزيس، أو هي «دراسة السيميوزيس»، وتعني كذلك «مصفوفة متعددة التخصصات من (أجزاء فرعية من) التخصصات والأساليب، تركز على ظاهرة المعنى متعددة الأوجه»[٧٠].

تغير اهتماماتها

طالما اهتمت السيميائيات في مرحلتها الكلاسيكية- وخاصة في أوروبا- بالتواصل البشري، وخصوصًا العلامات اللغوية وما يقوم مقامها كالصور والعلامات الإشارية. أما في المرحلة المعاصرة فقد تغيرت اهتمامات السيميائيات، وبخاصةٍ مع الجمع بين بيرس وأوكسكيول، فتوسعت اهتماماتها، ودخلت مجالات عديدة بعيدًا عن اللسانيات.

لم تَعُدْ العلامةُ في حد ذاتها أو في حياتها الاجتماعية اهتمامها الأساسي، بل أصبح اهتمامها الأساسي هو السيميوزيس في كل تشكلاته وتمظهراته. لقد غدتْ بحثًا عن المعنى حيثُ وُجِدَ.

لذلك فقد دخلتْ عددًا من المجالات والحقول المختلفة؛ لأنه ثَمَّتَ سيميوزيس، وثَمَّتَ معنى، فدخلت في الفيزياء والبيولوجيا وعلوم الحاسوب والاتصال.

اختلاف وضعها

كـان لهـذا الالتقـاء الأثر الأكبر فـي تغير وضع سيميائيات، فقد بدأت معه مرحلة جديدة، عُرفت فيهـا بالسيميائيات الحديثـة، تمييزًا لها عـن السيميائيات في المرحلـة السابقة. في هذه المرحلـة اختلف وضـع السيميائيـات، فلم يعد الحديـث عن كونها علمًا أم لا، أو هل هي جزء من اللسانيـات أم اللسانيات جـزء منها، يشغل منظريها، كما كان شـائعًا قبـل ذلك. لقد احتلت مكانة مميزة ومتعالية في المعرفة الإنسانية[٧١] حتى إن جـون ديلي يـرى أن السيميائيات هي فلسفـة عصر ما بعـد الحداثة.[٧٢] إنهـا بالنسبة للسيميائييـن المعاصريـن «وجهـه نظر متعدد التخصصات»[٧٣]، وهي علم شـامل، إذ «توفر السيميائيـة بهذه الطريقة -ولكـن هذه المرة من داخل ترتيب فهم الإنسان كإنسان- تمييزًا يوحِّد الأنظمـة التأملية والعمليـة ضمن منظور واحد متعـدد التخصصـات يوفـره الوعـي ودراسة السيميوزيـس».[٧٤] فهـي العلـم الشامـل لكل العلـوم، المتعالـي عليها، الـذي يجعل من كل المجـالات والتخصصات حقـلًا له ما وُجد فيها السيميوزيـس، وهـي العلم التالـي للعلوم الذي يربط بين نتائجها ويوحدها.

الخاتمة

يعد تشارلز سندرس بيرس رائد السيميائيات الحديثة، وكان لنبش تراثه ولنظريته السيميائية وكذلك اكتشـاف جاكوب فان أوكسـكيول الأثر الأبرز في تَشَكُّل السيميائيات الحديثة باتجاهاتها المختلفة.

هنـاك عدد مـن نقـاط التقارب بيـن هذين العالِمَين، فقد عاشا في الفترة نفسها تقريبًا (نهاية القرن التاسع عشـر وبداية القرن العشرين) إلا أنهمـا بالرغم مـن ذلك لم يلتقيـا، ومع ذلك فقد التقيـا في التأثر بإيمانويل كانط، فهما مدينان له بالكثير، تأثرا بآرائه، وناقشـاها، وانطلقا منها، ووسـعاها، وبنيا عليها. وهمـا كذلك يتفقان في أن بحثهمـا منصـب على المعنـى والاتصال، فكلاهمـا بحثا في الكيفية التـي يُبنى بها المعنى فـي الاتصال عن طريـق العلامات، وما يجمع سـيميائيتهم هـذه أنهمـا لـم يقصـرا الاتصال السـيميائي على الاتصال اللغـوي أو الاتصال البشري، بل وسعاه ليشمل الطبيعة.

ظـل كل مـن بيـرس وأوكسـكيول بعيدين عن الأضواء وعن دراسـات المعنى والاتصال والدراسـات السيميائية بشـكل عام، حتى الثلث الأخيـر (أو قبلـه بقليل) من القـرن المنصرم؛ إذ أعـاد عدد من السـيميائيين قراءتهما ونشـر إنجازاتهما؛ مما أدى إلى اكتشاف القيمة الكبيرة لأعمال أوكسكيول للسـيميائيات، وخاصة فيما يتعلـق بمفهـوم الأمفيلت، وهو مـا دعاهم إلى الجمع بينـه وبين بيرس ونظريته السـيميائية، وخاصة مفهومه (السيميوزيس).

ظهر هذا الاهتمام بالجمع بينهما في أعمال عـدد من أبـرز علمـاء السيميائيـات الحديثة، مثـل: سيبيـوك، وديلـي، ولوتمـان، وغيرهم. وكان هذا الجمع هـو العلامة الفارقة في تاريخ السيميائيات؛ إذ يعد اكتشاف بيرس وأوكسكيول والجمع بينهما أعلانًا لبداية مرحلة السيميائيات الحديثـة، فتوحـدت تسميتها، وتغيـر مفهومها واهتماماتها ووضعها.

الهوامش

(١) كنـتُ أكتب فـي أبحاثـي اسـم Peirce (بورس)، وذلـك بناء على أن النطق الصحيح له ليس (بيرس) بالياء الخالصة، وبناء على تنبيه عدد من الدارسـين الغربيين والعـرب، وأميل هنا إلى اسـتخدام كتابته بالصيغة المتداولة (بيرس) لاشتهارها بين الدارسين العرب، مع التنبيه إلى أن نطق هذا الاسم ليس بالياء الصرفة، بل هو صوت كالإشـمام بين الواو والياء، وهذا الصوت هو ɜ:، والكتابة الصوتية للاسم pɜ:rs

(2) Ryan (Michael)، The Encyclopedia of Literary and Cultural Theory، Published Blackwell Publishing Ltd، First Edition، 2011 P377.

(٣) كوبلـي (بول)، جانز (ليتسـا)، علـم العلامات، تر: جمال الجزيري، المجلس الأعلـى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، صـ٢٦.

(4) The Encyclopedia of Literary and Cultural Theory، P: 377.

(٥) دولودال (جيرار)، السيميائيات أو نظرية العلامات، تـر: عبدالرحمن بوعلـي، دار الحـوار، اللاذقية – سوريا، ط ١، ٢٠٠٤م. صـ١٨

(٦) المرجع السابق، صـ١٩.

(٧) بريمـي (عبـدالله)، مطـاردة العلامـات "بحث في سـيميائيات شـارل سـندرس بـورس التأويليـة، الإنتاج والتلقي"، دار كنـوز المعرفة، عَمّان، ط١، ٢٠١٦،صـ٢٨.

(٨) تشاندلر (دانيال)، أسس السيميائية، تر: طلال وهبة، المنظمـة العربية للترجمة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨م. صـ٤٤٧.

(9)Peirce (Charles Sanders)، The Essential Peirce «Selected Philosophical Writings»، Volume 2، (1913-1893)، Edited by the Peirce Edition Project (Nathan Houser، and other)، Indiana University Press، Bloomington And، 1998، p: 411.

(10) Ibid، p: 413.

(11) Queiroz (Joao)، Merrell (Floyd)، On Peirce's Pragmatic Notion of Semiosis; A Contribution for the Design of Meaning Machines، Minds & Machines (19)، Springer، 2009، p: 134.

(12) Ibid.

(١٣) بنكـراد (سـعيد)، السـيميائيات والتأويـل "مدخل لسـيميائيات ش. س. بـورس"، المركـز الثقافـي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٥، صـ١٦٩.

(١٤) المرجـع السـابق، صـ١٧٠. وينظـر: لعياضي (نصـر الديـن)، السـيميائيات واسـتراتيجية بنـاء المعنى، مجلة الباحث الاجتماعي، ع ١٠، سـبتمبر ٢٠١٠م، صـ٤٤.

(١٥) إيكو (أمبرتو)، السـيميائية وفلسفة اللغة، تر: أحمد الصمعـي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م. صـ٣٤.

(١٦) بنكراد، السيميائيات والتأويل، صـ١٧٣.

(17) Brentari (Carlo)، Jakob von Uexküll: The Discovery of the Umwelt between Biosemiotics and Theoretical Biology، Biosemiotics، Volume 9، Springer، 2015، p: 22.

(18) Ibid، p: 24.

(19) Ibid، p: 24.

(20) Ibid، p:26 & 28.

(21) Ibid، p:28-29 & 33.

(22) Ibid، p:34 & 35.

(23) Ibid، p:38 & 42.

(24) Ibid، p: 55.

(25) Kull (Kalevi)، Introduction to Biosemiotics، «International Handbook of Semiotics»، Editor: Trifonas Peter Pericles. Springer، New York، 2015، p: 523-524.

(٢٦) اللفظ الألماني Um-Welt يعني حرفياً "العالم المحيط"، فـ(Welt) تعني (العالم)، والبادئة (Um) تفيد الإحاطة، وتترجم عادة على أنها "البيئة"، ولكنها لا تعني البيئة بمعناها اللغوي. وللخروج من اللبس الذي يُوقع فيه استعمال لفظ البيئة في اللغات الأخرى، وللحفاظ على الثراء الدلالي للفظ الألماني Umwelt، يستخدم العلماء اللفظ الألماني، وينقلونه كما هو، حتى أصبح ضمن مفردات الإنجليزية وفقا لقاموس New Oxford American Dictionary، ولكنه يستعمل بوصفه مصطلحًا علميًا، أي أن استعمالها يقتصر على الاستعمال الأكاديمي.

ينظر:

Jakob von Uexküll; The Discovery of the Umwelt between Biosemiotics and Theoretical Biology، p: 75.

Kull (Kalevi)، Umwelt and modelling. In: Cobley، Paul (ed.)، The Routledge Companion to Semiotics. London: Routledge، 2010، 43–56.، p: 43.

(27) Kull (Kalevi)، On semiosis، Umwelt، and semiosphere، Semiotica، 120-3/4، 1998، p: 304.

(28) Ibid.

(29) Jakob von Uexküll; The Discovery of the Umwelt…، p: 63.

(30) Ibid، p: 75

(31) Ibid، p: 79.

(32) Ibid، p: 80.

(33) Ibid، p: 86.

(34) On semiosis، Umwelt، and semiosphere، p: 304.

(35)Jakob von Uexküll; The Discovery of the Umwelt…، p: 90.

(36) Umwelt and modelling، p: 43.

(37) Jakob von Uexküll; The Discovery of the Umwelt…، p: 227

(٣٨) السيميائيات أو نظرية العلامات، صـ١٩.

(39) Burch (Robert) «Charles Sanders Peirce»، The Stanford Encyclopedia of Philosophy (Winter 2021 Edition)، Edward N. Zalta (ed.)، URL = https://plato.stanford.edu/archives/win2021/entries/peirce/

(40) The Essential Peirce: Selected Philosophical Writings، p: 353.

(41) «Charles Sanders Peirce»، The Stanford Encyclopedia of Philosophy.

(42) Jakob von Uexküll; The Discovery of the Umwelt…، p: 23.

(43) ibid، p: 58-59.

(44) ibid، p: 65.

(45) ibid، p: 235.

(46) ibid، p: 234.

(47) «Charles Sanders Peirce»، The Stanford Encyclopedia of Philosophy.

(48) Jakob von Uexküll; The Discovery of the Umwelt…، p: 235.

(49) Ibid.

(50) Introduction to Biosemiotics، p: 523-524.

(51) Jakob von Uexküll; The Discovery of the Umwelt…، p: 93.

(52) إيكـو (أمبرتو)، القارئ فـي الحكاية، تر: أنطوان أبـو زيد، المركـز الثقافي العربي، الـدار البيضاء، 1996م. صـ31.

(53) Biosemiotics: A new understanding of life، p: 19.

(54) Kull (Kalevi) & Lotman (Mihhail) Semiotic Tartuensis: Jakob von Uexkiill and Juri Lotman، Semiotica 127-1/4، Walter de Gruyter، (1999)، p: 118.

(55) Cobley (Paul) [et al.] (ed)، Semiotics Continues to Astonish: Thomas A. Sebeok and the Doctrine of Signs، Walter de Gruyter GmbH & Co. KG، Berlin/ Boston، 2011، p: 475

(٥٦) لوتمان (يوري)، سـيمياء الكـون، تر: عبدالمجيد نوسـي، المركز الثقافي العربـي، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠١١م. صـ١٥.

(57) On semiosis، Umwelt، and semiosphere، p: 305.

(58) Umwelt and semiosphere، p: 34.

(59) Sebeok (Thomas Albert)، Signs: An introduction to semiotics، University of Toronto Press، 2001، p: xi.

(60) Jakob von Uexküll: The Discovery of the Umwelt between Biosemiotics and Theoretical Biology، p: 225.

(61) Ibid.

(62) Signs: An introduction to semiotics، p: xiv.

(63) Jakob von Uexküll: The Discovery of the Umwelt between Biosemiotics and Theoretical Biology، p: 227.

(64) Signs: An introduction to semiotics، p: 27.

(65) Kull (Kalevi)، Salupere (Silvi)، Torop (Peeter)، Semiotics has no beginning، Deely، John، Basics of Semiotics (Tartu Semiotics Library 4)، Tartu University Press، Tartu، 2005، p: x.

(66) Deely (John)، Basics of Semiotics (Tartu Semiotics Library 4)، Tartu University Press، Tartu، 2005، p: 154.

(67) Ibid، p: 152.

(68) Ibid، 154.

(69) Introduction to Biosemiotics، p: 521.

(70) Zlatev (Jordan)، Cognitive semiotics: An emerging field for the transdisciplinary study of meaning، Public Journal of Semiotics 4/1، 2012، p: 2.

(٧١) للمزيد عن مكانة السيميائيات الحديثة في المعرفة الإنسانية ينظر: الملجمي (علوي أحمد)، مكانة السيميائيات في المعرفة الإنسانية، مجلة الرافد، الإمارات، ٢٠٢١/١٠/٥، https:///u.pw/u٦ahM٢

(72)Semiotics has no beginning، p: x.

(73) Deely (John)، Semiotics "today": The twentieth-century founding and twenty-first-century prospects، In: International handbook of semiotics، Springer، Dordrecht، 2015، p. 30.

(74) Basics of Semiotics، p: 211-212.

المصادر والمراجع

- إيكو (أمبرتو)، السيميائية وفلسفة اللغة، تر: أحمد الصمعي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
- إيكو (أمبرتو)، القارئ في الحكاية، تر: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٦م.
- بريمي (عبدالله)، مطاردة العلامات «بحث في سيميائيات شارل سندرس بورس التأويلية، الإنتاج والتلقي»، دار كنوز المعرفة، عمّان، ط١، ٢٠١٦.
- نكراد (سعيد)، السيميائيات والتأويل «مدخل لسيميائيات ش. س. بورس»، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٥.
- تشاندلر (دانيال)، أسس السيميائية، تر: طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨م.
- دولودال (جيرار)، السيميائيات أو نظرية العلامات، تر: عبدالرحمن بوعلي، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط ١، ٢٠٠٤م.
- كوبلي (بول)، جانز (ليتسا)، علم العلامات، تر: جمال الجزيري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥،
- لعياضي (نصر الدين)، السيميائيات واستراتيجية بناء المعنى، مجلة الباحث الاجتماعي، ع١٠، سبتمبر ٢٠١٠م،
- لوتمان (يوري)، سيمياء الكون، تر: عبدالمجيد نوسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠١١م.
- الملجمي (علوي أحمد)، مكانة السيميائيات في المعرفة الإنسانية، مجلة الرافد، الإمارات، ٢٠٢١/١٠/٥، مسترجع من: https://u.pw/u٦ahM٢
- Brentari (Carlo)، Jakob von Uexküll; The Discovery of the Umwelt between Biosemiotics and Theoretical Biology، Springer، New York، London، 2015.
- Burch (Robert)، «Charles Sanders Peirce»، The Stanford Encyclopedia of Philosophy (Winter 2021 Edition)، Edward N. Zalta (ed.)، URL = https://plato.stanford.edu/archives/win2021/entries/peirce/
- Cobley (Paul) [et al.] (ed)، Semiotics Continues to Astonish: Thomas A. Sebeok and the Doctrine of Signs، Walter de Gruyter GmbH & Co. KG، Berlin/Boston، 2011.

- Deely (John)، Basics of Semiotics (Tartu Semiotics Library 4)، Tartu University Press، Tartu، 2005.

- Deely (John)، Semiotics “today”: The twentieth-century founding and twenty-first-century prospects، In: International handbook of semiotics، Springer، Dordrecht، 2015.

- Kull (Kalevi) & Lotman (Mihhail) Semiotic Tartuensis: Jakob von Uexkiill and Juri Lotman، Semiotica 127-1/4، Walter de Gruyter، (1999)،

- Kull (Kalevi)، Introduction to Biosemiotics، “International Handbook of Semiotics”، Editor: Trifonas Peter Pericles. Springer، New York، 2015،

- Kull (Kalevi)، On semiosis، Umwelt، and semiosphere، Semiotica، 120-3/4، 1998،

- Kull (Kalevi)، Salupere (Silvi)، Torop (Peeter)، Semiotics has no beginning، Deely، John، Basics of Semiotics (Tartu Semiotics Library 4)، Tartu University Press، Tartu، 2005.

- Kull (Kalevi)، Umwelt and modelling. In: Cobley، Paul (ed.)، The Routledge Companion to Semiotics. London: Routledge، 2010، 43–56.

-Lotman (Mihhail) “Umwelt and semiosphere، Sign Systems Studies 30/1، 2002: 33-40.

- Peirce (Charles Sanders)، The Essential Peirce «Selected Philosophical Writings»، Volume 2، (1913-1893)، Edited by the Peirce Edition Project (Nathan Houser، and other)، Indiana University Press، Bloomington And، 1998،

- Queiroz (Joao)، Merrell (Floyd)، On Peirce’s Pragmatic Notion of Semiosis; A Contribution for the Design of Meaning Machines، Minds & Machines (19)، Springer، 2009،

- Ryan (Michael)، The Encyclopedia of Literary and Cultural Theory، Published Blackwell Publishing Ltd، First Edition، 2011.

- Sebeok (Thomas Albert)، Signs: An introduction to semiotics، University of Toronto Press، 2001.

- Zlatev (Jordan)، Cognitive semiotics: An emerging field for the transdisciplinary study of meaning، Public Journal of Semiotics 4/1، 2012: 2-24.

Charles Sanders Peirce and Jacob von Uexkull in Modern Semiotics

By Dr. Alawi Ahmed Al-Malgami

Abstract

Many researchers do not know semiotics (or do not see its beginnings) except through De Saussure and Charles Peirce. However, in this study I offer a different argument, in which Saussure becomes out of this truth-distanced binary, which has dominated the history of modern semiotics for a long time. I attempted to present the modern semiotics through two real founders; they are, first, Charles Sanders Peirce, who is considered the real and first founder of semiotics, but he remained in the margins alongside Saussure, who occupies the first and main position, and, second, Jacob von Uexkiill, the founder who has been utterly marginalized (especially in Arabic studies). Still, he is one of the two pillars upon which modern semiotics is based.

The present study offers a brief definition of Peirce and his basic concept of «semeosis», and Uexkiill and his concept of «Umwelt» (or what can be translated as the subjective universe). Moreover, I have explored the points of convergence between these two scholars, in terms of their starting-points and areas of interest. The study highlights their effects on the formation of as well as developments in modern semiotics, their position among modern semiotics scholars, and how does reading them together impact on changing the concept of semiotics, its interests and status.

Keywords: Semiotics, De Saussure, Peirce